أهي صليبيّة... أم جهلٌ للإسلام!؟

أ. د. عبد الملك مرتاض*

نحن المسلمين انطلاقاً من المبادئ الإسلاميّة السّمحة الّتي نؤمن بها والّتي علّمنَاهاَ إسلامُنا نحترم الدّيانتين السماويّتين الأُخْرَيَيْنِ فلا نتعرّض لهما بالقدْح ولا نتناولهما بالذّمّ والتنقيص ولا نخوض في أمرهما بأيّ وجه من خوض السّوء؛ وذلك من باب أنّ الدّين كلّه للّه. بل إنّ إيمَاننا لا يكتمل إلاّ بالإيمان بالرسل والأنبياء الّذين سبقوا نبيّنا محمّداً صلّى اللّه عليه وسلّم ومنهم عيسى بن مريم عليهما السّلام. كما أنّ إسلامنا لا يبيح لنا إبداء التّعصّب إلى الأديان السّماويّة الأخرى.

لكنّ الآخرين بكلّ حزن لا يفعلون فعلنا ولا يسلُكون سلوكنا بل تراهم لا يزالون يتحرّشون بنا ويتعمّدون نَحْلَ أَثْلَتنا ويعتدُون على ديننا الحنيف باسْم حرّيّة الرأي والتفكير فيهاجمُون إسلامنا ومقدّساتنا ويَمَسّونَنا في صميم عقيدتنا وهم لا يرعوُون! فكأنّنا وإيّاهم كما قال الشاعر العربيّ القديم:

ألسْتَ مُنْتَهِياً عن نحْتِ أثلَتنا؟ ولستَ ضائرَها ما أطّتِ الإبِلُ!

فلْيأْذَنوا لنا في أن نخوضَ اليومَ معهم نحن أيضًا في بعض الّذي خاضوا دون السقوط في الذهاب معهم إلى بعيد! ولكنْ لا بدّ من قول شيء لأنّ السّكوت عن ذلك هو تمكينٌ للباطل ولأنّ الإعراض عنه هو إزهاق للحقّ.

---

* عضو المجلس الإسلاميّ الأعلى وأستاذ بجامعة وهران.

ذلك بأنّه كثُرَ الهرْجُ والمرْج، والضجيج والعجيج، فتعالت التصريحات الْمُسيئةُ إلى الإسلام وتوالت الاتّهامات الباطلة للنّبيّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام في العهود الأخيرة كما كان وقع ذلك في الحقيقة في العهود القديمة أيضًا فرُمِيَ الإسلامُ بكلّ باطل وقُذفَ الرّسول الكريم بكلّ قبيحة ونقيصة فنيلَ منهما في كلّ مناسبة ومكان من الغرب المسيحيّ الحاقد ولعلّ ذلك الحقد الدّفين يعود إلى عهود الحروب الصليبيّة الّتي كان يُرادُ من وراء اكتساح الجيوش المسيحيّة الغربيّة الشرقَ العربيّ كلّه عَرَضُ الدّنيا أكثر ممّا كان يُرادُ من ذلك قدسيّةُ العقيدة والنَّضْحُ عنها وكانت تلك الحروبُ مجرّدَ تمهيد مبطَّنٍ للاستعمار الغربيّ المسيحيّ الحديث الّذي لم يكد ينجو من شرّه ً وجشَعه وطمعه بلد مسلمٌ في المشرق والمغرب جميعاً فهذا الاستعمار المغتصَبُ لسيادات الشعوب هو الّذي كان سبباً أصلاً في إشعال نار حروب ومقَاومات شعبيّة لا عاقلَ من النّاس ينتظر اليوم أن تنطفئ إلاّ برجوع ًكلّ معتد محتلٍّ إلى بلده وبرجوع الحقّ إلى نصابه أي بتسليم الأقوياء المعادين للإسلام والمسلمين بحقّ الوجود للمستضعفين ليس فقط في العيش تحتهم عبيداً كما لا يزالون يريدون ولكنْ في حقّ العيش أسياداً في أوطانهم وقد ولدتْهم أمّهاتهم أحراراً...

لم يفتأ الساسّة الغربيّون المسيحيّون ورجال الكنيسة المتعصّبون يهاجمون الإسلام هذه الأيّامَ الّتي ضعُف فيها المسلمون فأمسَوْا أذلّ مِن فَقْعٍ بقرْقَر كما تقول العرب: إمّا بالسخريّة من صاحب الرسالة العظمى محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم، بتلك الرسوم الحقيرة الحاقدة الّتي تجرّأ على رسْمها، في لحظة شيطانيّة شخصٌ دنيء غيرُ متحضّرٍ ولا متخلّق، فهي لا تنمّ إلاّ عن انعدام الحدّ الأدنى من الْخُلق القاضي بضرورة احترام الآخرين وما يعتقدون فحسب؛ ولكنّها تدلّ على انعدام الذّوق الْمتحضّر لديه من أجل التعايش المعاصر بين الأديان دون تصادم –طوراً وإمّا على أنّ الإسلام دينُ العنف

والبطش والقتل طوراً (تصريحات بوش غير مرّة وأنّ الإسلام فاشيّ!... وكتاب جدّه الجاهل الّذي ألّفه عن الإسلام بعنوان: "محمّد مؤسّس الدّين الإسلاميّ" (والّذي نشرتْ ترجمتَه مسلسلاً جريدة "الجزائر نيوز" من موقف حاقد ولم يقل شيئاً غيرَ الإساءة إلى هذا الإسلام ونبيّ الرّحمة محمّد عليه الصّلاة والسّلام إساءةً رخيصة...) وإمّا على أنّه دين التّخلّف طوراً وأنّه لم يقدّم إلى الإنسانيّة شيئاً (تصريح رئيس الحكومة الإيطاليّ السابق، ولو علم هذا الجاهلُ الغافل بأنّ الغرب لم يتطوّر إلاّ بالأرقام العربيّة والجبر العربيّ والكحول العربيّ والبارودالعربيّ والبصريّات العربيّة والجراحة الطّبّيّة العربيّة وإثبات كرويّة الأرض العربي وما لا يُحصى من الاستكشافات الّتي وقع التوصّل إليها بالعقل لا بالوجدان وبالتّفكير لا بالتخريف لكان أمسك لسانَه عن ذلك الهذيان!...) وإمّا على أنّه دينُ اللاّعقل طوراً آخر (محاضرة البابا الحالي الّذي ألقاها بإحدى الجامعات الألمانيّة منذ أيّام)...

ولئنْ كان حجمُ هذه المقالة لا يسَعُ مقدارَ الرّدّ على كلّ هذه الاتّهامات الباطلة وتفنيد هذه الافتراءات الحاقدة والتخرّصات الفاسدة على الإسلام وقدتكاثرتْ هذه الأيام حتّى تكالبتْ وتعدّدتْ حتّى تناوَحَتْ في العواصم الغربية المسيحيّة حتّى كأنّها حملة شيطانيّة منظّمة... فإنّنا لا أقلّ من أن نناقش آخرَها تهجّماً على الإسلام وأن نتناول أثقلَها وزْناً في ميزان الشيطان وهي تهمةُ باباهُمُ الأكبرِ حين جاء يتحدّث عن صورة اللّه في الأديان... وعلى أنّنا لا نريد أن نتزلق معه إلى التّهمة الباطلة الّتي تزعم أنّ محمّداً، صلّى اللّه عليه وسلّم لم يأتِ بشيء ينفع النّاس في الأرض لأنّ الرّد على هذا الباطل يجب أن يستغرقَ جبالاً من الورق وبحاراً من الحبرِ وقروناً طوالاً من العمر... ولذلك سنجتزئ فقط بمناقشة البابا مناقشة مقتضبة في ادّعائه أنّ العقل الإسلاميّ قاصرٌ ويرفض العقْلَنَةَ والعقلَ لأنه نزّهَ اللّهَ عن التشبيه ولأنّ هذا العقل عجز عن تصوّر ذاته تعالى فتزّهه عن التجسيم...

وكيف نسيَ البابا أو جهِل أو تجاهل وهو حَبْرُهم الأعظم أنْ لا دينَ يمجّدُ العقلَ كالإسلامِ على وجه الإطلاق؟ نقول ذلك ونوكّده توكيداً. وماذا كان الْحَبرُ قائلاً في أنّ كلّ المستكشفات المدهشة الّتي انتهى إليها العربُ في عهود الخلافات المتلاحقة في المشرق والمغرب إنّما كانت بفضل العقل المفكّر المدبّر الّذي يمجّده الإسلام ويشجّع العلماء على الذّهاب به إلى أبعد الحدود الممكنة؟...

وإذا كانت المسيحيّة تنهض نظريّاً على منْح الخدّ الثاني غير المضروب ليُضرَبَ، فلم يكن ذلك في الحقيقة إلاّ قولاً مثاليّاً ظلّ دون فعْل في مجال العمل... لأنّ أكبر الجرائم الإنسانيّة في التاريخ إنّما ارتكبها الغرب المسيحيّ: انطلاقاً من محاكم التّفتيش في الأندلس (ولم تعتذر الكنيسة للمسلمين من حيث اعتذرتْ لليهود الّذين يحكمون اليوم العالم بفضل خبثهم ومِحَالهم) ومروراً بإبادة الهنود الحمر إبادة منهجيّة في أمريكا والاستيلاء على أرضهم إلى الأبد وانتهاءً إلى مجازر البُوسْنة والهرسك الّتي أبيدَ فيها عشرات الآلاف من المسلمين في قلب أوربا «المتحضّرة» بل قُل: إنّ الانتهاءَ، والعياذُ باللّه، لَمّا ينتهِ...! فاللّهُ وحدَه يعلم ما يُخبَّأُ على الأرض لأهلِ التوحيد!...

إنّ تمجيد الوجدان بدل العقل لم تأت به إلاّ الرُّومَنْسيّة الألمانيّة في الفنون والآداب!... بل إنّ الإسلام دينَ العقل والمنطقَ والتفكير والتعليل وإنّ أصول الفقه الإسلاميّ وإنّ انتشار مدارس علم الكلام وإنّ ظهور الفرَق والمذاهب الإسلاميّة المتعدّدة كلّها أو كلّه (بل حتّى النحو العربيّ قام على التعليل وتبيان الحكمة من الرفع والنصب والجرّ في الكلام تأسيساً على العوامل العاملة في ذلك...): فكلّ أولئك إذن يشهد شهادة يُثبتها التاريخ وتصدّقها الأفعال وتدلّ عليها النتائج بتمجيد العقل وإتاحة حرّيّة التفكير والقبول بالاختلاف في الإسلام... فالفِرَق

الإسلاميّة والمدارس الكلاميّة والمذاهب الفقهيّة لم تنشأ في حقيقة أمرها، عن تضريم حروب ولا عن إضمار عداوات ولا عن تطاحُن سيَاسات ولكنّها نشأتْ عن تمجيد لاختلاف الرأي وقَبول بتعدّديّة تأويل النّصوص الدينيّة (القرآن العظيم والحديث النّبويّ الشّريف أساساً إذ هما المصدران المركزيّان للتّشريع الإسلاميّ) في إشعاع فكريّ مدهش وفي قدرة عقليّة فائقة وخصوصاً إذا وقعَ مراعاةُ السياقِ التّاريخيّ الّذي يرجع بذلك إلى أكثرَ من عشرة قرون نحو الوراء...

وإذن فإنّ كلّ ما في الأمر وبحكم أنّ الإسلام ينهض على مبدأ التوحيد وتنزيه الذات الإلهيّة عن كلّ تشبيه وتجسيد تجانَفَ الفكر الإسلاميّ (مع ما نعلم بوجود فرَق إسلاميّة غير معترَف بها سُنّيّاً ذهبت في تصوّرها للذات الإلهيّة مذاهبَ بعيدة قد تكون أوسعَ وأبعد إيغالاً من اللاهوت المسيحيّ نفسه...) بفلسفته وفقهه وأصوله وكلامه عن أن يَهْوِيَ إلى الْمَهاوي الّتي تجسّد الذّاتَ الإلهيّة ويُسِفّ إلى الْمَعَامي التي تُخْضعُها لتصوّر العقل البشريّ المتّصف بالعجز والقصور في مثل هذا الموقف الوجوديّ العظيم... بل إنّ الإسلام يَعُدُّ تجسيد الله خروجاً عن الإجماع الإسلاميّ، حتّى لا نقول أكثر من ذلك!...

فإذا كان العقل المسيحيّ الّذي ينهض على الفلسفتين الإغريقيّة والألمانيّة كما يقول البابا في بعض محاضرته يجسّد الذّات الإلهيّة تجسيداً حقيقيّاً وجريئاً فإنّ آخر مَن ينبغي أن يتكلّم عن العقل والعقْلَنة هو الحبر الأعظم فهو يعلم أنّه في الموقف الأضعف والموقع الأوهَى لأنّ نظريّة التثليث (الّتي قد تعتنقها بعض الفئات المسيحيّة) لا تجسّد العقل ولا حتّى الوجدان ولكنّها تجسّد الخروج عن التصوّر السليم للعقل وإمّا لا فكيف يجعل هذا العقلُ اللّهَ ثالثَ ثلاثة وأنّه يحلّ في رجُل من البشر وأنّه في الوقت نفسه أبٌ لرجل من البشرِ (ولعلّ لقب الأب أو البابا جاء من هذا الاعتقاد

الباطل) أقول: فإنّ الإسلام دين التوحيد لا دينُ الوثنيّة ودينُ التنزيه لا دين التجسيم. فأمامَ عجْز العقل البشريّ عن أن يتمثّل وجود الذات الإلهيّة تمثّلاً حقيقيّاً أو حتّى تقريبيّاً وما كان له ليبلغ ذلك فلم يبقَ له إلاّ أن ينزّهَهُ عن كلّ تجسيد ويرفعه عن كلّ تشبيه ويعلوَ به إلى كلّ ما يخالف التصوّر العقليّ البشريّ القاصر عن إدراك الذات الإلهيّة، إدراكاً يقوم على تمثّل الكائنات على الأرض... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] وقديماً قال أبو حامد الغزالي، بعد بحث طويل وبعد التجربة الروحيّة الرّائعة الّتي عرضها في كتابه "المنقذ من الضلال": **"اللّهمّ إيماناً كإيمان العجائز"!**

والحقّ أنّ كلام البابا غيرُ مؤسَّس منطقيّاً وهو مختلّ منهجيّاً كما سمعناه وقرأناه في وسائل الإعلام على الأقلّ على الرغم من أنّهم يقولون عن هذا البابا إنّه كان ذات زمنٍ جامعيّاً: وإمّا لا فكيف يصف الإسلام بأنّه دين اللاّعقل لمجرّد أنّه يرفض تجسيد صورة اللّه ويصف المسيحيّة بأنّها دين العقل لمجرّد أنّها لا تتورّع ولا ترعوي في تجسيد الذّات الإلهيّة فتبوء بالإثم وتركَب الباطل... مع أن المسيحيّة من حيث هي وفي جميع التنظيرات اللاّهوتيّة غير المسلّمة في مجال العمل هي الّتي لا تنهض على العقل بل على الوجدان وهي الّتي تُعرف من الوجهة النظريّة على الأقلّ بتقديم الخدّ الثاني للضرب! وكيف يمكن أن نجمع بين الفلسفتين الإغريقيّة القديمة والألمانيّة الحديثة وهما فلسفتان في عامّة مبادئهما إلحاديّتان انطلاقاً وأصلاً وبدءاً وغايةً والدِّينُ المسيحيّ الّذي هو دين سماويّ جاء به السيّد المسيح عليه السّلام والّذي يتّهم بعضُ أصحابه اليومَ الإسلامَ بأنّه دين العنف إيماءً إلى عمله بالجهاد...

ونردّ على هذا الادّعاء فنقول بتركيز شديد: لَمّا كان الإسلام ملّةً ونظاماً فإنّه جعل الجهادَ فريضةَ عينٍ على المسلمين من أجل الدّفاع عن العقيدة الإسلاميّة والمسلمين فأين الغرابةُ في هذا الأمر؟ وأين توجد هذه الشريعة

1. سورة الشورى، الآية 11.

أو هذا القانون الوضعيّ اللّذَيْن يحظُران على بشر من النّاس الدّفاع عن نفسه مسلماً أو غير مسلم؟ ثمّ ألمَ يحكم كفّار قريشٍ على الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم بالإعدام بضربة واحدة من سيوفٍ رجال من قبائل مختلفة في دار النّدوة وبتدبير من أبي جهل الّذي وسوس له الشيخ النجديّ ولم يكن إلاّ إبليس؟ ألم يَضْطَرِر المشركُونَ المسلمينَ الأوائلَ إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة قبل أن يهاجرَوا إلى المدينة المنوّرة من أجل أن يمارسوا شعائرهم الدّينيّة بحرّيّة وفي أمْن؟ ألم تعذِّبْ قريشٌ كثيراً من أوائل المؤمنين تعذيبا أفضى ببعضهم إلى الموت؟ فهل كان الإسلامُ في كلّ هذا هو البادئَ بالقتال وهو الدّاعيَ إلى العنف وفِعله؟ وهل كانت محاكمِ التّفتيش المسيحيّة في الأندلس حين أبادت ملايين المسلمين تعتنق ديناً لا يدعو إلى العنف، حقّاً؟ وأين كان أحبار الكنائس ورهبانُها فلمْ يتدخّل أحدٌ منهم لإنقاذِ مسلم واحدٍ من بطش أولئك الحاقدين المتعصّبين؟...

وإذن فإنّ المسلمين حين هاجروا بعقيدتهم، وقد أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ، لم يألُ الكفّارُ جهداً في كسْر شَوكتهم، ومتابعتهم وإيذائهم حتّى في طريق هجرتهم إلى المدينة (تكالُب قريش وجنونها في البحث عن النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم في طريقه إلى المدينة ورصْد الجوائز الخياليّة المغرية للأعراب ليدلّوهم عليه...) **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾**[1].

فهنالك أُذنَ للمظلومين والمستضعفين والْمُخْرَجين من ديَارهم بغير حقّ والْمُقاتَلين بَأن يقاتلوا الّذين يعتدون عليهم: **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (...)﴾**[2].

---

1. سورة الأنفال، الآية 30 _ **2.** سورة الحج، الآية (39، 40).

وعلينا أن نلاحظ أنّ الإسلام في سموّه وتسامحه من خلال منطوق الآية السابعة والثلاثين من سورة الحجّ الّتي شرّعت الجهاد للدّفاع عن العقيدة: يَقرِن المساجدَ بالبِيَع والصوامع، حين تقرّر الآية الكريمة الحكمةَ من الدّفاع عن العقيدة بل تبدأ الآيةُ بالصوامع والبيع قبل المساجد لأنّ الإسلام دين اللّه الحقّ ولأنّ الدِّين الحقّ لا يستثني ديناً من دينٍ وذلك إذا لم تغيَّر مبادئه ويحرَّفْ كلامُ كتبه كما حرّفتِ اليهود كَلام اللّه عن موضعه فأخضعته لأهوائها.

ثمّ إنّ الجهاد في الإسلام قتالٌ «متحضّر متخلّق» فعند ما يُضطر المسلمون إلى الدّفاع عن أنفسهم ودينهم فإنّهم يعاملون المحارَبَ بسموّ ورقيّ بحيث لا يقطعون شجَراً ولا يهدّمون صوامعَ ولاَ بيعاً ولا يتعرّضون لأصحابها بالإساءة والأذاة ويحترمون العهود والمواثيق الّتي تُعقَد مع المحارَبين... كما لا يسمّمون السّلاحَ الّذي يحاربون به كأن يكون ذلك ماثلاً في تسميم النّبال (إذْ يقول الشيخ خليل عن ذلك: «وحرُمَ نَبْلٌ سُمَّ») مثلاً (وهو ما لا يفعله الّذين يمثّلون الحضارة الغربيّة المستمَدّة من الكنيسة اليوم والّذين يدّعون احترام حقوق الإنسان وآخرُ مشهدٍ من مشاهد أصحاب تلك الحضارة المتوحّشة ما وقع من هجوم علىً النساء والأطفال والأبرياء اللبنانيّين منذ زهاء شهر فقط بالقنابل الانشطاريّة والإشعاعيّة وتلويث البيئة وتعفين أمواهِ البحر بنُفايات النِّفط!...)، حيث إنّهم يستبيحون اصطناع أسلحة الإحراق والقنابل الانشطاريّة وكلّ ما يفتك بالأبرياء...).

أم نسِيَ قداسةُ البابا بعضَ ما ورد في سِفْر التثنية في الإصحاح العشرين (ص 10 وما بعدها) من التوراة عن مبادئ الحروب إذ يقول: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربَها استدعِها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفُتحت لك فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويُستعْبَد لك وإن لم تسالِمْك بل عملتْ معك حرْباً فحاصِرْها. وإذا دفعها

الرّبُّ إلهُك إلى يدك فاضربْ جميع ذكورها بحدّ السيف. وأمّا النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة كلّ غنيمتها، فتغنَمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائكَ الّتي أعطاك الربُّ إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا الّتي ليستْ من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأمّا مدن هؤلاء الشعوب الّتي يعطيك الربّ إلهك نصيباً فلا تُبْقِ منها نسمة»[1].

ووَرَد في إنجيل متّى (الإصحاح العاشر ص 24 وما بعدها) ما يلي:

"لا تظنّوا أنّي جئتُ لألقيَ سلاماً على الأرض؛ ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً. فإنّي جئت لأفرّق الإنسان ضدّ أبيه والابنة ضدّ أمّها(...) من أحبَّ أباً أو أمّاً أكثر منّي، فلا يستحقّني. ومن أحبّ ابناً أو ابنةً أكثر منّي فلا يستحقّني ومن لا يأخذ صليبه ويتّبعني، فلا يستحقّني..."[2].

بل إنّ الآداب الإسلاميّة تتسامَى عن قتْل الإنسان وتسليط السيف عليه لمجرّد أنّه يختلف معك في العقيدة أو الرأي. قال اللّه تعالى: **﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾**[3]. وقال في آداب التسامح: **﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾**[4].

إنّ الإسلام لم يكن قطُّ دينَ عُنف ولا دينَ قتْل: **﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾**[5] إلاّ مُدافعاً عن حقِّ وجوده وحفاظاً على ممارسة عقيدته انطلاقاً من غزوة بدرٍ إلى غزوة الأحزاب إلى غزوة الطّائف إلى غزوة تبوك، إلى غزوة بني قريظة إلى فتح مكّة... ثمّ من بعد ذلك سار الأمر على مثل ما سار عليه من قبل... ففرْض الجهاد على المسلم هو فرْض كفاية ويندرج في إطار حقّ الدّفاع

---

1. عن السيد سابق، "فقه السنة"، ج 2 ص 618، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1405_1985، الطبعة السابعة. ونحن نعجب لهذه الركاكة الّتي ترجم بها النّصّ من العبريّة إلى العربيّة؛ فكلام اللّه يربأ عن هذا الإسفاف في الصياغة ـ **2.** م. س.، 1. 618-619 ـ **3.** سورة الزخرف، الآية 89 **4.** سورة الجاثية، 13 ـ **5.** سورة المائدة، الآية 32.

عن العقيدة والنّفس بالمفهوم السياسيّ والقانونيّ المعاصر لحقّ الدّفاع عن الوجود... وليس من باب الإصرار على تخريب العالم وقتال كلّ مخالف في الرأي والعقيدة ما دام مسالماً... فالقادة الغربيّون وساستهم ورجال دينهم جميعاً كما رأينا هم الّذين تبغي عساكرهم وجيوشهم فساداً في الأرضِ وهم ينطلقون من مواقفَ تجهل أو تتجاهل المبادئ الإسلاميّة السّمحة جهلاً فاحشاً وإلاّ فهم يتعمّدون ذلك من أجل الإيذاء والإساءة وفي الحالين هم ليسوا محمودين ولا يكادون يتعاملون في كلّ ذلك إلاّ بمبدإ ﴿... ويلٌ للمصلّين...﴾.

وقد يقال: إنّ العقل الإسلاميّ وحده هو الّذي عجز عن التجسيد لقصُوره فلا حجّة لنا فيما ذهبْنا إليه لأنّ العقل المسيحيّ الغربيّ عقل جبّار لأنّه عقلٌ جريء فهو أقدر على تصوّر اللّه على النّحو الّذي يراه! ولذلك يظلّ عقلاً أهلاً للتّمجيد... وحينئذ لا يكون هذا العقل الغربيّ في تمثّلنا، إلاّ كمثل الأعمى الّذي يُبرهنُ بأصابعه على خيطين من جنس واحد، ولكنْ بلونين مختلفيْن: أبيض وأسود فإذا استطاع هذا الأعمى أن يتجرّأ على الحقّ فيُمسكَ بالخيط الأبيض فيزعمَ للناس أنّه أسودُ يقيناً ثمّ يمسك بالخيط الأسود فيزعم أنّه أبيض توكيداً. فهل يكون في ذلك من المصيبين؟ وهل يصدّقه أَحدٌ من العاقلين؟ فالعقل البشريّ هو عقل واحدٌ ولا يجوز أن يتوصّل هذا العقل للحقيقة الإلهيّة العليا عند أهل الغرب ولا يتوصّل لها عند أهل الشرق. بل العكس هو الصحيح إذ الشرق هو مصدر الديانات ومهدُها وأهل مكّةَ أدرَى بشعابها! أم نعود إلى نظريّة أرنست رنان العنصريّة الّذي يتّهم فيها العربَ والمسلمين بكلّ التّهم الباطلة وأنّهم غير قادرين على التفكير في مستواه الأعلى!...

ونحن نخاطب قداسةَ البابا الْحَبر من باب خطاب جامعيٍّ لجامعيّ وليس من باب خطابِ مسلمٍ لمسيحيّ، فنقول له: وَقد ادّعَيتَ على

الإسلام بأنّه ليس دينَ عقل لأنّه لا يعرف كيف يجسّد اللّه ويشبّهه كما يمثُل ذلك في اللاهوت المسيحيّ. فأَثبتْ لنا أنت أيّها الْحَبْرُ صورةَ اللّه إثباتاً عقليّاً تستطيع أن تبرهن عليه كما تبرهن على أنّ اثنين إذا أُضيفَ إليهما اثنان، لا يساويان إلاّ أربعة!... برهنْ، إذنْ لنا على حقيقة صورة اللّه (خارج المعتقد الّذي يقول بأنّ ثلاثَة تساوي واحداً وأنّ واحداً يساوي ثلاثة لأنّ هذه المقولة هي ضدّ العقل والمنطق إذ لا فلسفة على الأرض ولا نظريّة من النّظريّات الرياضيّاتيّة وهي علميّة وأنتم أهل العلم قالتْ: إنّ ثلاثة تساوي واحداً أو إنّ واحداً يساوي ثلاثة!...): إن شئت بالعقل فعَقْلِنْ وإن شئتَ بالنّقل فنَقْلِنْ: برهَنةً علميّةً مُقنِعة قاطعةً باتّةً بَتْلَةً ونحن حينئذ نسلّم لك بما تقول!...

ولكنّنا نعلم بأنّك لا تستطيع لأنّ ذلك فوق مستوى العقل البشريّ القاصر...

أنت أيّها الحَبر لا تستطيع ذلك لأنّك مجرّد بشر من النّاس... وُلدتَ وتموت وتمرض وتصِحّ وتأكل وتشرب ولو شئتَ أن تتزوّج لأنْجبت... وإذن فليس في مُستطاعك أن تُثبتَ لا لنفسك ولا للنّاس لا من المؤمنين ولا من الكافرين صورة اللّه على حقيقتها العليا: لا هاتوتيّاً ولا منطقيّاً ولا فلسفيّاً ولا رياضيّاتيّاً عَلى الطّريقة التجسيميّة الّتي يتصوّرها بعض الفلاسفة محاولين ولعلّ قَول عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه يمثّل المذهب السنّيّ الجماعيّ لتصوّر الذّات الإلهيّة بأنّ "اللّه تعالى خلقَ العرشَ إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته"[1] وقال أيضاً: "قد كان ولا مكان وهو الآنَ على ما كان".

وعلى أنّا نقول لك: لو اطّلعت فقط على كتابَيْ أبي الفتح محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني، وهو "الملل والنّحل" المتوفّى سنة 548 هـ وعبد

---

1. أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغداديّ، "الفرْق بين الفِرَق"، ص 321، منشورات دار الآفاق، بيروت، 1393-1973.

القاهر البغداديّ المتوفَّى سنة 418 هـ. في كتابه: "الفَرْقُ بين الفرَق" ورأيت الفِرَق الإسلاميّة ورؤساءَها وأتباعها كيف كانوا يتناقَشون ويختلفون ويتناقضون ويتعارضون عن الذّات الإلهيّة وصفاته تعالى لكنت ربما اقتنعتَ بأنّ العقل الإسلاميّ عقل جبّار وقد يكون أكبر العقول في هذه المسألة بالذات الّتي تتّهمه بقصوره فيها...

وإذا كان للفلاسفة الحقُّ - و"الفلسفة بإجماع من الفلاسفة مبيّنة للفضائل من الرذائل موقِفَة على البراهين المفرّقة بين الحقّ والباطل"[1] - في أن يتصوّروا القيم العظيمة ومنها وجود اللّه بعقولهم فلأنّ الفلسفة تفكير وبحْث ومُساءلة وسؤال... أمّا أن يتجانفَ دين من الأديان وخصوصاً الأديانَ السماويّة، إلى الفلسفة يستعين بها على الإيمان بوجود اللّه وخصوصاً تصوُّرَ ذاتِه العليا فليسَ ذلك إلاّ ضرْباً من التدبير العاجز وجنساً من التفكير القاصر...

وعلى أنّ فلاسفة الإسلام ومنهم ابن سينا في الشرق وابن رشد في الغرب حاولوا أن يوفّقوا ما بين الفلسفة والدِّين وأنّهما لا يتعارضان بل إنّ الفلسفة هي الّتي تحاول إثبات صورة اللّه على ما ترى هي ولكنْ من وجهة نظر إسلاميّة ظلّت تتساءل في حدود الآداب الإسلاميّة الْموحِّدة الْمُترِّهة...

لكن الفلسفة هي أمّ المعارف وهي علم دنيويّ وهي مجموعة من النظريّات أسّسها مفكّرون من البشر الّذين يأكلون ويمشون في الأسواق ويصيبون ويخطئون وقد يُخطئون أكثر ممّا يصيبون في حين أنّ الدِّين للّه من عند اللّه، يدعو للّه... فكيف تقع المزاوجة بين ما قام على المقدّس وما قام على المدنّس وبين ما هو قائم على الإيمان والتسليم وبين ما قام على الشّكّ والمساءلة من وجهة وبين الفكر المستند إلى التوحيد والتتريه لا إلى التشبيه والتّوْثينِ من وجهة أخرى؟...

1. ابن حزم الظاهري، "الفِصل في الملل والأهواء والنِحل"، ج 1 ص 94، دار الفكر، بيروت، 1400-1980.